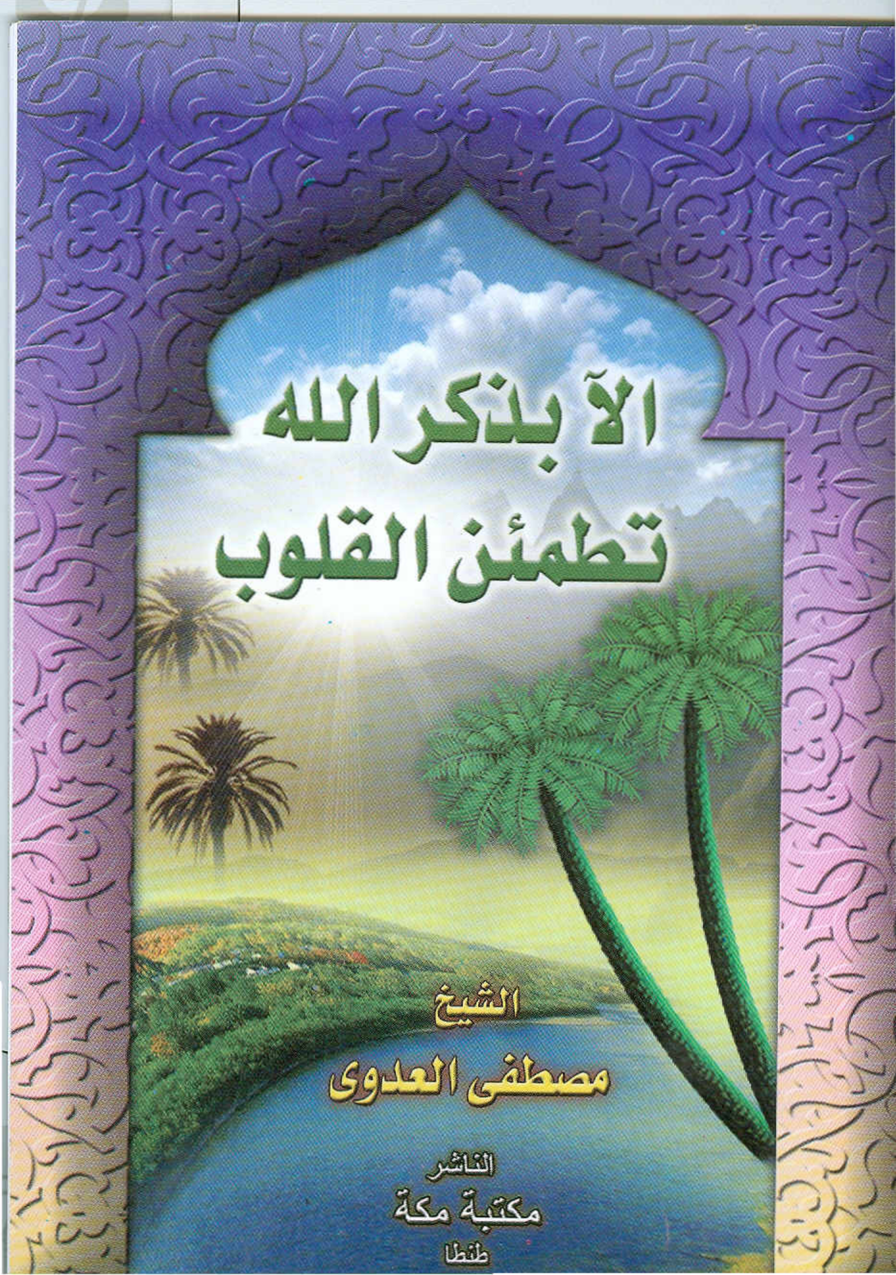


ألا بذكر الله تطمئن القلوب

الشيخ
مصطفى العدوى

الناشر
مكتبة مكة
طنطا

سلسلة تأملات فى أيات (١)

الابذكر اللّه تطمئن القلوب

تأليف

الشيخ مصطفى بن العدوى

الناشر

مكتبة مكه

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فيقول الله تبارك وتعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وصدق الله فيما قال، فما من شيء إلا وشأنه في كتاب الله عز وجل، إن لم يكن علىٰ التفصيل فهو علىٰ الإجمال، والباحث عن أي شيء يجد أصله في كتاب الله عزَّ وجل وفي سنة رسوله ﷺ، فالباحث عن دواء لطمأنينة القلب وشفاء الصدور يجد بغيته وحاجته في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، إذ الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وبالجملة فـ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، وفي هذا الصدد نُذكّر من كتاب ربنا بآية يجد فيها الشخص طمأنينة لقلبه ودواء عاجلاً لقلقه واضطرابه، فربنا وخالقنا هو أعلم بنا وبقلوبنا وما يصلحها وما يطمئنها ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [تبارك: ١٤] أما الآية التي نتناولها فهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وبيان المراد بالذكر هاهنا حتى يتزكى بهذه الآية من تزكى ويذّكر بها من يخشى، نسوق تأويلها بشيء من الإسهاب والتفصيل ضمن سلسلة نصدرها تباعًا ـ إن شاء الله ـ

أسميتها: «تأملات في آيات»، فالله أسأل أن ينفعني والمسلمين بكتابه وبسنة نبيه ﷺ وأن يطمئن قلوبنا بذكره على الدوام.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

لأهل العلم جملة أقوال في تأويل (الذكر) هاهنا، وكل هذه الأقوال حقٌّ، وكلها صدقٌ، فالذكر ينطبق عليها جميعًا وجميعها تنطبق عليه.

* **فمن أهل العلم من قال: إن المراد بالذِّكر هنا القرآن:**

ولهذا القول أدلته وشواهده، فمن أدلته وشواهده:

* قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]. فالذكر هنا القرآن.

* وكذا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا**

جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

فالذكر هاهنا القرآن كذلك.

* وكذا قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] فالذكر أيضًا هاهنا القرآن.

* ومن أهل العلم من قال: إن المراد بالذِّكر هنا، ذكر الله المتمثل في تسبيحه، وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وذلك كقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكذا نحو قوله: ما شاء الله، وتبارك الله.

* ومنهم من قال: إن المراد بالذِّكر هاهنا الأذكار الموظفة: المختصة بالأزمنة والأمكنة والأحوال التي علمنا إياها رسولنا محمد ﷺ.

كالذِّكر عند الغضب، وعند القلق، وعند الوضوء، وعند الجماع، وعند نزول المنازل، وسفر المسافر، ودخول الداخل، وخروج الخارج، ونحو ذلك، وهذا هو القول الثالث.

* أما القول الرابع: فحاصله أن المراد بذكر الله، ذِكرُ قدرِ الله عزَّ وجل، أي: تذكُّر أن الأمور مقدرة، قدرها الله عز وجل، ومناسبة هذا القول ووجهه أن الله قال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قالوا: أي ومن يؤمن بقدر الله، ويوقن أن المصائب قدرها الله يهد قلبه.

* وأما القول الخامس: فالمراد بالذكر هو اليمين بالله أي الحلف بالله عز وجل.

※ أما القول السادس، فالمراد بالذِّكر، ذكر الله داخل الصلاة، إذ الصلاة محلٌّ لذكر الله عزَّ وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أي لتذكرني فيها، وذلك علىٰ أحد التفسيرات، وتفسيرٌ آخر، وأقم الصلاة كي تحظىٰ بذكري لك، فإنك إذا ذكرت الله في الصلاة ذكرك الله عز وجل، وكذا إذا ذكرته في خارج الصلاة.

※ وقد قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، قال بعض العلماء: أي عن الصلاة.

※ أما القول السابع، فالمراد بالذكر هاهنا، هو ذكر الله عز وجل باستغفاره، والتوبة والإنابة والرجوع إليه.

فهذا مجمل الأقوال التي وردت في المراد بالذكر في

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

أمَّا كيف تطمئن القلوب بالذكر على الوجوه المذكورة آنفًا؟

فها هي وجوه الطمأنينة بذلك:

أما على تأويل الذِّكر بالقرآن، فإن القرآن إذا تُلي وقرأه القارئ تنزلت السكينةُ، وغشيت القارئ الرحمةُ وحفته الملائكةُ، كما في حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه مسلم[1] وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم**

(١) مسلم (مع النووي: ١٧/ ٢١).

الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده».

فإذا تنزلت الملائكة هربت الشياطين، فالشيطان لا يكاد يتواجد مع ملكٍ في مكان واحد.

ألا ترىٰ أن الشيطان غرَّ أصحابه من أهل الكفر يوم بدر، وزين لهم أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفئتان (الفئة المؤمنة والفئة الكافرة) نكص علىٰ عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرىٰ ما لا ترون، فقد رأىٰ الشيطان الملائكة، وعليهم أداة الحرب، إذ الملائكة قد شهدت بدراً مع المؤمنين، فحينئذ فرَّ وهرب، وولىٰ وأدبر، ونكص وانصرف.

وهكذا، فالقرآن إذا تُلي وتنزلت الملائكة هربت الشياطين، تلك الشياطين التي تسبب القلق، وتجلب

الاضطراب وتدفع إلى المعاصي دفعًا، وتخوِّف الناس تخويفًا إذ الله قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إزعاجًا وتدفعهم إلى المعاصي دفعًا، فإذا انصرفت الشياطين حدث الهدوء، وتنزلت السكينة فاطمأنت القلوب، وهدأ البال.

* فهذا وجهٌ لطمأنينة القلوب بالقرآن الذي هو ذكر الله، ملخصه أن القرآن يُتلى فتتنزل الملائكة، فتهرب الشياطين فيحدث الهدوء، وتحدث السكينة.

* ووجه آخر لطمأنينة القلوب بالقرآن، أنه ما من صاحب ابتلاء، وما من أحدٍ حلَّت به مصيبة يقرأ كتاب الله، إلا ويجد لنفسه مشابهًا قد أصيب بمثل مصيبته، ويجد متعزًّى يتعزَّىٰ به ومتسلى يتسلىٰ فيه،

فينظر لمن شابهه في مصيبته وبلائه فيرىٰ أن العاقبة للتقوىٰ، وأن العسر يتبعه - بإذن الله - يسرٌ، وأن الكرب يتبعه الفرج، فيهدأ بالُهُ ويستقر حاله، فإذا مرض المريض واشتد عليه المرض، واضطرب قلبُهُ لعجز الأطباء عن دوائه، ويأسهم من شفائه فقرأ هذا المريض كتاب الله، وكذا نظر في سنة مصطفاه ﷺ، التي هي وحيٌ يوحىٰ، وجد له أمثالاً ونظراء عجز عن دوائهم الأطباء، ولكن ثم من لا يعجز، وثمَّ شافي لا شفاء إلا شفاؤه، فالله هو الذي يذهب البأس، لا يُذهبه أحدٌ سواه، والله هو الذي يكشف الضرَّ لا يكشفه أحد دونه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

فحينئذٍ تطمئن النفس، ويذهب اليأس، فإذا قرأ القارئ المريض من كتاب ربه قصة نبي الله أيوب عليه السلام وكيف وأن الله شفاه بعد عجز الأطباء عن البحث له عن دواء اطمأن القلب وهدأ البال، وواصل المريض الدعاء، وتصبر كما أمره الله، ولم ينقطع في الله رجاه.

فأيوب قد جعله الله وقصته ذكرىٰ للعابدين، ذكرىٰ يتذكرها العباد فيصبرون كما صبر، فيؤجرون كما أُجر.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١-٤٣].

وقال تعالىٰ في شأن هذا النبي مثنيًا عليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. فيا لها من ثلاث شهادات لو أُعطي الواحد منها شهادةً منها ما وسعته الدنيا، وما فيها، إنها ثلاث شهادات لهذا النبي الكريم من الله رب العالمين.

إنا وجدناه صابرًا!!

نعم العبد!!

إنه أواب!!

فيا لها من فضيلة، ويا لها من مكرمة.

وانظر إلى قصته بشيء من التفصيل في حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه ابن حبان[1] بسند صحيح لغيره من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أيوب نبي الله لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أَمُرُّ على**

(١) ابن حبان (موارد الظمآن: ٢٠٩١).

الرجلين يتنازعان فيذكران الله وأرجع بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: إني أنا هو وكان له أبدران: أبدر القمح وأبدر الشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أبدر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أبدر الشعير الوَرِقَ حتى فاضت».

فهكذا لا ييأس أحدٌ من روح الله، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ولا يقنط أحدٌ من رحمة الله، ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

فلتطمئن قلوب المرضىٰ ومن ضاقت بهم السبل، وانقطعت عنهم الحيل، فلتطمئن قلوبهم إلىٰ رحمة الله، وعلىٰ فرج الله، فالله يراهم ويبصرهم ويطلع علىٰ أحوالهم لا يخفىٰ عليه من أمرهم شيءٌ.

وكذا الآلام والآهات كل ذلك يعلمه الله ويسمعه، ألا فلتطمئن القلوب بذكر الله.

وكذا أيضًا إذا تجاوزنا الابتلاء بالضرِّ في الأبدان إلىٰ ابتلاء آخر قد يُبتلىٰ به بعض العباد، ألا وهو الطعن في الأعراض، والتشكيك في الأمانات، إلىٰ غير ذلك

من الاتهامات الباطلة التي قد يُرمىٰ بها أهل الفضل والصلاح فيرىٰ المتهم البريء لنفسه شبهاء ونظراء، اتهموا وهم برآء فأظهر الله براءتهم في الدنيا قبل الآخرة فحينئذ تطمئن النفوس البريئة، وتطمئن قلوب أصحابها إلىٰ فرج الله، وإلىٰ نصر الله في الدنيا، وإلا ففي الآخرة - يقينًا - ينجي الله الذين اتقوا، ويُبرئ الله ساحات أهل الإيمان، والمظلومين من كل شائنةٍ وعيب وطعن.

هاهم أفاضل اتهموا وهم برآء فأظهر الله براءتهم.

* **اتهم يوسف صلى الله عليه وسلم** وقالت امرأة العزيز لزوجها في شأن يوسف: ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٢٥].

ثم برأه الله على لسانها بقولها بعد ذلك: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢].

* اتهمت مريم عليها السلام، وقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

فبرأها الله على لسان الطفل الرضيع، ونطق عيسى عليه السلام في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

[مريم: ٣٠-٣٣].

* اتهمت أم المؤمنين التقيـة الصالحة عائشة رضي الله عنـهـا، بما رماها به أهل الإفك فنزلت فيـها آيات تتلىٰ في الصلوات وخـارج الصلوات: ﴿إِنَّ الَّـذِيـنَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُـمْ لا تَحْسَبُوهُ شَـرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ [النور: ١١ ـ ١٨] الآيات.

* اتهم موسى صلى الـله عليه وسلم، وآذاه قومه فبرأه الله مما قالوا وكـان عنـد الله وجيـهـا، كـمـا قال تعـالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَـالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَـرَّأَهُ اللَّهُ مِـمَّا قَـالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيـهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وها هي القـصة بذلك، أخـرجهـا البخـاري[١] فـي «صحـيحـه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) البخاري حديث (٣٤٠٤).

قال رسول الله ﷺ: « إن موسى كان رجلاً حييًّا ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون،وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه،وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]» .

فهذه بعض وجوه الطمأنينة بكتاب الله عزَّ وجل:

* سكينةٌ تتنزل وملائكة تحفُّ، رحمةٌ تغشى، شياطين تفرُّ وتهرب.

* ثم تسلِّي وتأسي وتصبر.

فهذا هو القول الأول في المراد بالذكر، ألا وهو القرآن.

أما الوجه الثاني في تفسير الذكر: وقد أشرنا إليه آنفًا ألا وهو التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والتمجيد ونحو ذلك، فكل ذلك يقوِّي الله به القلوب، ويطمئن الله به النفوس، ومن وجوه ذلك أن المسبِّح إذا سبَّح والحامد إذا حمد، وكذا المُكبر والمهلل إذا كبر وهلل هربت الشياطين، وذلك لكونها تخنس عند ذكر الله ـ عز وجل ـ وتختفي، ويقلُّ عملها

ويضعف، فحينئذٍ تتأتىٰ للقلوب الطمأنينة وتتنزل عليها أيضًا السكينة وكيف لا؟! والذاكر يُذكره الله والذاكر يُثيبه الله، والذاكرُ يرفع الله درجته والذَّاكرُ في حصن حصين من الشيطان الرجيم!!

ثم أيضًا فإن الذاكر يُثاب بسبب الذِّكر فترتفع درجته وتحطُّ عنه خطيئته، تلك الخطيئة التي سببت للقلب اضطرابًا وقلقًا، فبمحو أثرها يسكن القلب ويطمئن، وهكذا تطمئن القلوب بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

أما القول الثالث في تأويل الذكر: فهو ـ كما أسلفنا ـ الأذكار الموظفة التي علمنا إياها رسولنا محمد ﷺ، فبها تطمئن القلوب ووجه ذلك علىٰ سبيل المثال أن الشخص إذا نزل منزلاً مُوحشًا فخاف، ثم إنه ذكر

حديث رسول الله ﷺ: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك»(١) فذكر الله بهذا الذكر وتعوَّذ بهذا التعوذ اطمأن قلبه وهدأ باله، على قدر إيمانه ويقينه وتصديقه بحديث رسول الله ﷺ.

* وكذلك الشخص الذي خوَّفه قومٌ فذكر ما قاله أهل الإيمان لما خوفهم الناس بقولهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فماذا كان؟ قال تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

---

(١) مسلم (مع النووي: ١٧/ ٣١).

ورد في «الصحيح» [1] من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها ـ إبراهيم عليه السلام ـ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وكذا الذي قام من النوم عن إثر رؤيا مفزعة أرهقته وأرَّقته وخوَّفته، فقال وعمل بما علمه إياه رسول الله ﷺ وهي خمسة أمور تفعل عند الرؤيا المفزعة، أخذت من مجموعةٍ من الأحاديث، وهذه هي الأمور:

* التعوذ بالله من شر هذا الحُلم.
* والتفل عن يسارك ثلاثًا.

---

(١) البخاري حديث (٤٥٦٣).

* والتحول عن جنبك الذي كنت عليه.

* ثم صلاة ركعتين.

* وعدم التحديث بها.

فحينئذٍ لن يضره شيء بإذن الله تعالىٰ.

قال أبو قتادة[1] رضي الله عنه: وأنا كنت أرىٰ الرؤيا فتمرضني حتىٰ سمعت النبي ﷺ يقول: «**الرؤيا الحسنة من الله...**» فذكر الحديث وفيه: «**وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا، ولا يحدث بها أحدًا فإنها لا تضره**».

* وكذا المسافر القلق علىٰ أولاده إذا خرج مسافراً وخشي علىٰ أولاده من بعده فتوكل علىٰ الله وأخذ بالأسباب واستودعهم الله كما عُلم من سنة

(١) البخاري (مع الفتح: ١٢/ ٤٣٠).

رسول الله ﷺ فليس بضاره شيئًا بإذن الله.

فهكذا تطمئن القلوب بالأذكار الموظفة التي نتعلمها من رسولنا محمد ﷺ.

أما القول الرابع في المراد بالذكر: فهو ذكرُ قدرِ الله عز وجل أي تذكُّر أن الأمور مقدرة فحينئذٍ تطمئن القلوب عند حلول المصائب، ونزول البلايا، بل، وفي الرخاء أيضًا.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

أي، ومن يؤمن بأن المصائب قدرها الله، وإنما حلَّت بالشخص بإذن الله، يهد الله قلبه ويطمئن الله قلبه.

وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فمفاد الآية الكريمة أننا أخبرناكم بأن الأمور مقدرة حتىٰ لا تندموا علىٰ شيءٍ فاتكم، ولا تبطروا ولا تغتروا بشيء آتاكم الله إياه.

فإذا خرج خارجٌ لتجارة وتأخر عن السوق ووجد الناس قد ربحوا وأخذوا أخذاتهم وربحوا أرباحهم، وعلم أن الأمر مقدرٌ وأن الرزق مكتوب قبل أن يخلق، بل قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ كما قد جاء في الحديث، فحينئذ

يطمئن قلبه ويهدأ باله ولا يندم على ما فاته.

وإذا خرج أخوه مسافراً أو غازياً فمات في سفره أو في غزوته وعلم أن أمر الوفاة ومكانها وزمانها مقدر مكتوب لم يندم على موت أخيه ولم يتحسر، بل يسترجع كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وزاد ما ورد عن رسول الله ﷺ: «**اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها**»(١) فحينئذٍ يهدأ باله ويستقر حاله وتتنزل عليه السكينة ويصلي عليه ربه ويرحمه ويهديه كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» حديث (٢٦٥٣) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] وما أحسن وما أجمل ما ذكرته أم سلمة لما مات زوجها أبو سلمة.

* أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أم المؤمنين (أم سلمة) رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها»**(١).

قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها: فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.

قالت: أرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة

---

(١) مسلم (ص: ٦٣١)

يخطبني له فقلت: إن لي بنتًا وأنا غيور فقال: «أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يَذهب بالغيرة».

أما الكافر ـ عياذاً بالله من الكفر ـ فييأس من الرحمة ويقنط من روح الله ولا يطمع في الفرج واليسر، بل في قلبه حسرات تتلوها حسرات ويضطرب قلبه اضطرابًا يتلوه اضطراب.

وكذا الذي قلَّ إيمانه وضعف يقينه فماذا عساه أن يفعل إذا حلَّت به المصيبة أو نزلت به البليةُ؟!!

فهذه امرأة كافرة، وأخرىٰ قل إيمانها وضعف يقينها حلَّت بها مصيبة، ونزلت بها بلية فشقت الجيب ولطمت الخدَّ وحلقت الرأس واعترضت علىٰ الأقدار واضطرب قلبها فأصبحت تسب الأيام والشهور

والليالي، وتصيح صياح المجانين، بل ويكون المجنون أفضل منها في حالتها تلك، فالمجنون مرفوع عنه التكليف، أما هي فتقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب كما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن النائحة[١]، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من الصالقة والحالقة والشاقة[٢].

❋ وماذا عساها أن تجني بعد ذلك، إنها تجني ثمار

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم حديث (١٠٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب».

اعتراضها على القدر: حسرات إلى حسرات، وخساراً إلى خسارٍ، يتسرب إليها الندم الذي لا ينفع بشيء فتقول: يا ليته ما خرج من بيته، فتقع فيما يقع فيه الكفار الذين نهانا الله عن التشبه بهم حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

* فهؤلاء الكفار إذا خرج إخوانهم مسافرين، أو خرجوا في غزوة من الغزوات فماتوا في أسفارهم، أو قتلوا في مغازيهم تسرب الندم إلى إخوانهم الجالسين الذين لم يخرجوا وقالوا: يا ليتهم ما سافروا وما

خرجوا؛ فلو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا، وهذا الندم الذي تسرب إليهم إنما قذفه الله في قلوبهم عقوبة لهم على كفرهم، وعلى اعتراضهم على أقداره.

ثم بيَّن الله لأهل الإيمان أنه سبحانه هو الذي يحيي وهو الذي يميت، وهو عليم بما نقول، بصير بما نعمل.

* والطالب يكون في دراسته مجتهداً غاية الاجتهاد ذكيًّا في غاية من الذكاء، وكل عام ينجح وينجح بتفوق على أقرانه، ويأتي في امتحان الثانوية مثلاً - التي بعدها يتجه إلى جامعة من الجامعات - فيخرج من بيته صباحًا للامتحان؛ فيسقط من على الدَّرج فتكسر رجله، أو يهشم رأسه، أو تصدمه سيارة فيذهب إلى المستشفى والآلام تحيط به من كل جانب والدم ينزف منه من كل مكان، يعالج ويتألم وزملاؤه في الامتحان

يؤدونه بهدوء أعصاب وراحة بال، فماذا عساه أن يفعل إذا لم يكن مؤمنًا بأقدار الله؟!!

لا شك أنه إذا كان مؤمنًا بالله وبأقداره رضي وحمد الله على كل حال، وعلم أن هذا ابتلاء من الله، وأن الله عز وجل يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، فكان أمله ورجاؤه فيما عند الله، واحتسب كل ما أصابه في نفسه وبدنه ودنياه، فحينئذٍ يبدله الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه.

* والمرأة أو الفتاة تكون جميلة حسناء يتحدث أهل البلدة عن حسنها وجمالها وبهائها؛ فما تلبث إلا قليلاً حتى تُبتلى، تذهب لطهي طعام يتناثر زيت حار على وجهها وجسمها فيشوهها ويفرُّ الناس منها عند رؤيتها، فكيف تصنع مثل هذه إذا لم تكن تؤمن بالله وبأقداره وترضى بقضائه؟!!

أما عن القول الخامس في المراد بذكر الله: فكما أسلفنا هو اليمين بالله!

فإذا شككت أنه قد حدث أمرٌ ما من أحد إخوانك أو أصدقائك أو غيرهم، وارتبت في الأمر، وذهبت بك الظنون هاهنا وهاهنا، واضطرب قلبك ولم يستقر علىٰ حال ولم يهدأ لك بالٌ، وليست عندك بينات قواطع، ولا شهود ثقات، فتقدم لك من شككت في أمره وأقسم لك يمينًا بالله أنه ما فعل الذي اتهمته به فحينئذٍ ينبغي أن يطمئن قلبك ويهدأ بالك فإن كان صادقًا في يمينه فلا تحمل نفسك إثم الظن السيئ به، وإنه كان كاذبًا في يمينه فسينتقم الله لك منه وسيكفيكهم الله.

فهكذا يطمئن القلب بذكر الله عز وجل إذا رضي

صاحبه باليمين الذي شرعه الله، وأذكر هاهنا حديثًا ورد عن رسول الله ﷺ في واقعة من الوقائع.

أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين - وهو فيها فاجر - ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»[1]، قال: فقال الأشعث بن قيس: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواطن من «صحيحه»، منها (٢٦٦٦، ٢٦٦٧)، ومسلم حديث (١٣٨)، وغيرهم.

وثمَّ سبب نزول آخر لهذه الآية الكريمة أخرجه البخاري (٤٥٥١) من طريق إبراهيم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رجلاً أقام سلعة في السوق فحلف فيها لقد أعطي بها لم يُعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية، لكن في إسنادها إبراهيم بن عبد الرحمن وهو السكسكي متكلم فيه، وقد انتقد الدارقطني على البخاري إخراج بعض الأحاديث من طريقه.

اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة؟» قال: قلت: لا، قال: فقال اليهودي: أحلف قال: فقلت: يا رسول الله إذن يحلف ويذهب بمالي، قال فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية.

أما الوجه السادس فذكر الله الذي تطمئن به القلوب هو ذكره تعالى في الصلاة:

وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أي لتذكرني فيها، ووجه آخر: وأقم الصلاة حتى تحظى بذكري لك، فإن من ذكر الله ذكره الله، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وكما قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث

القدسي: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ منهم**»[١].

وبالصلاة تطمئن القلوب، ولذا فقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى[٢]، وكان أيضًا صلوات الله وسلامه عليه يقول لبلال: «**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**»[٣]، فصاحب القلب المضطرب إذا وقف بين يدي الله في صلاته، وذكره ودعاه ولجأ إليه ورجاه، وعظم ربه وركع، وخشع له وسجد اطمأن قلبه وهدأ باله بإذن الله.

---

(١) البخاري (١٣/ ٣٨٤).

(٢) صحيح لشواهده: أخرجه أبو داود (١١٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود حديث (٤٩٨٦).

أما الوجه السابع، فالذكر هو الاستغفار:

فاضطراب القلب من المصائب، وكذا قلقه وتقلبه، والمصائب إنما تتأتى وتحل في كثيرٍ من الأحيان بسبب الذنوب والمعاصي، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهذه المصائب وتلك العقوبات، تُدفع بالاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فبالاستغفار، وكذا رد المظالم إلى أهلها كلُّ ذلك يطمئن القلب بإذن الله، ويُذهب روعه وخوفه وقلقه واضطرابه.

* * *

وأخيراً ...

فكل هذه الأقوال حق، وكلها صدقٌ، والاختلاف في تأويل الذكر هنا اختلاف تنوع، وليس باختلاف تضاد، فمن اضطرب قلبه وأراد له السكون والطمأنينة فعليه:

*بتلاوة القرآن وتدبره وتأمل آياته وتفهمها.

*وعليه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والتمجيد.

*وعليه كذلك بالأذكار الموظفة الواردة في الكتاب العزيز وصحيح السنة.

*وكذا فليرض بقضاء الله الذي قضاه، وقدره الذي قدَّر.

* وكذا فليرض بشرع الله، وليقبل اليمين بالله، ويكلُ ما وراء ذلك إلىٰ الله عز وجل.

* وكذا فعليه بالصلاة.

* وليكلِّل ذلك بالاستغفار ورد المظالم إلىٰ أهلها فبذلك تطمئن القلوب، ومن أصدق من الله قيلا.

ومن أصدق من الله حديثا، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟!! طمأن الله قلوبنا بذكره، وأعاننا ربنا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصلى اللهم على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

فهرست الموضوعات

الآ بذكر الله
تطمئن القلوب

الشيخ
مصطفى العدوى

الناشر
مكتبة مكة
طنطا

